

غرقاً في سراب

هب من نومه فزعاً، أنفاسه تتلاحق كخوار
القطار السارب في غياهب الشك، وجبينه تحتته
أنهار العرق الباردة المتفصدة منه، لقد صحا للتو
من كابوس مزعج مخيف.

مد يده الفصنيّة الضئيلة إلى محيط الماء المتكوم
في كأسه المنبجح الهلامي بجانبه، فالتهم رشفة
غلقت صدره المكدود البانس براحة وانشرح
باردين، إلا أنه لا يزال قلقاً إزاء ذلك الكابوس، ولا
تزال ذاكرته الموحشة ملتقطة تفاصيله العامة، رغم
ضياح كثير من حبيباته.

لقد شاهد كأنه يتهادى في طريق موحش كفم الليل
العتيق، طويل طول الأمل القصير الفاني، ثم توقف فجأة
إثر رؤيته لشبح شخص يخطو أمامه بخطوات مقعقة، لم
يستطع تحديد ملامحه، رغم شعوره القوي بأنه يعرفه
معرفته نفسه، وأنه غائص في أعماقه، وسار في كيئورته
المتوترة المبتعدة، وفجأة أخرج الرجل من جيبه مسدساً،
وأخذ يطلق عليه النار بوحشية وتشفّ وجنون، عندها
انسلّ من حلمه مذعوراً.

حاول أن يدفن ذلك الكابوس في جوف النسيان، فالتقى
برأسه المليء بالألوان والأشكال والمجهول على وسادته
الخرافية البائسة بؤسه والتحف، لكن هلع ذلك الكابوس
باق في مخيلته المتوهجة، ومختلط بالألوان والأشكال
والمجهول الذي في رأسه، أغمض عينه الناعسة
الغائرة في كهف جفونه المتحفزة محاولاً إزاحتها
فلم يقدر، إنه يعلم تماماً أن ذلك كان مجرد
حلم عابر لا أكثر ولا أقل، لكنه لا يدري
لماذا يغشيه بساط التوتر والقلق، هام
ببصره الساهم في عالم غرفته
الضييق اللامتناهي، ونظر إلى
ساعة الحائط العجوز أمامه



بقلم: خليفة بن عربي
البحرين

مستعينا بالضوء الخافت الذي يبلل أركان الغرفة، ثم لاحظت منه ابتسامة صغيرة، إنها الثانية صباحا، وقد تذكر أنه كان ينظر إلى ساعة معصمه في ذلك الكابوس الممض فكانت الثانية صباحا أيضا.

- يالها من مصادفة عجيبة! اتفقت ساعة الحقيقة مع ساعة الحلم.

عندها قفزت إلى مخيلته المشحونة بفئات الهيا ذكري جدته المتوفاة، تلك المرأة النحاسية اللامعة وهي تقذف في أسماعهم أحاجيها وقصصها المخروطة الغريبة، واتفاقها مع لب الواقع.

- يالها من حكايات سخيفة! ورغم ذلك كنا نصدقها، لقد كانت تسليتنا في أيام الطفولة.. ليت تلك الأيام تعود.

عندها أدار رأسه، وابتسامته المترددة لا تزال منحوتة على محياه المتبدل، وفجأة اختفت تلك الابتسامة، وانقبض ثغره الممتلئ، وانتبهت روحه، لقد لمح على الأرض دمية أخيه الصغير مكبوبة على وجهها.

- يالي من غبي!! كيف نسيت هذا؟ لقد رأيت أيضا في الحلم دمية تشبه هذه الدمية ملقاة على الأرض، ولما رفعتها إلى ناظري وجدتتها مفقوعة العين اليسرى، ترى هل هذه الدمية كذلك؟ أوه. تباً للشيطان اللعين، إنه يحاول أن يغويني، لقد كان مجرد حلم وانتهى لا علاقة له، والأشياء تتطابق معه.

رفرفت الأفكار الرمادية الرطبة في ذهنه، أخذ يفكر:

- ماذا لو ألقيت نظرة؟ لن تضُر. لكن ماذا لو وجدتتها مفقوعة العين؟ بالطبع لن يبدو كونه حلما.

انتصب واقفا كبرج ثلثته عوامل التعرية، اقترب من الدمية ببطء شديد ويدها ترتعشان، كان مترددا وجلا، حاول التراجع عن عزمه المطاطي، لكنه أصر. أمسك بالدمية المتناثرة كأوراق الخريف، وفجأة صرخ صرخة خوف خافته، وألقى بالدمية، ثم رجع إلى سريريه الأسطوري وقال بدهشة:

- إنها مفقوعة العين، يا إلهي.. ما الذي يعنيه هذا؟ هل سيتحقق الحلم؟ لا لا، مستحيل، إنه حلم... مجرد حلم ويجب أن أنساه.

تفكر قليلا:

- ماذا دهاني، لم أعد طفلا حتى تختلط علي الأمور هكذا، إنه حلم، حلم فقط.

أعجبته كلمة طفل، حركت في نفسه ذكرياته المخملية السالفة، فكست نفسه شيئا من الراحة:

- ليتني بقيت طفلا، الأطفال أحباء الله، وهم أحبباء الكبار أيضا، لا مشاكل لديهم، يلعبون ويمرحون



ويخربون.

عاد إليه هدوء نفسه نوعا ما، وعادت إليه ابتسامته الهاربة وهو يتذكر ثانية أيام الطفولة، بقي سادرا كطود المساء، قرر النوم، وقبل أن يهَم بتغميض عينيه شاهد عنكبوتا على الحائط، فز وأقفأ، وقد جحظت عيناه ثم صرخ:

- يا الله، إنني أذكر أنني رأيت عنكبوتا كذلك يسير على الأرض في ذلك الحلم الرهيب... ما معنى كل هذا؟

عاد إليه قلق نفسه، وضع رأسه بين دنيا كفيه وهو يفكره كأنما يريد أن يطرد الأفكار والوساوس الزجاجية منه - أو كأنما يريد أن يسقط ذلك الشيطان اللعين الذي يلبس عليه الأمور في عقله، عندها توقف عن الحركة وقال:

- الساعة.. الدمية.. العنكبوت.. ماذا بقي؟! الرجل، نعم، الرجل، هل سيظهر كي يقتلني؟!.. مستحيل، إنه حلم.

جلس على سريريه، تلفت حوله، لا يعرف ماذا يفعل، أينتظر ذلك الرجل الغامض؟، هل ينتظر أجله؟ الانتظار صعب لدرجة عدم الشعور، ولدرجة الموت، تداخلت الأفكار في رأسه، اختلطت الألوان والأشكال والمجهول، مع حكايات جدته، مع طفولته اللاهثة، مع شبح الفناء.

أسرع متوجها نحو باب الغرفة، وكأنه يبحث عن الخلاص من تلك الدوامة القذرة من الهموم والشكوك. وقبل أن يفتح الباب، سمع خطوات خلف الباب تقترب، تسمر مكانه:

- أياكون ذاك هو الرجل؟.. نعم إنه هو.

اضطربت أفكاره، تراجع للخلف وهو يحذج ناحية الباب المبتسم له بسخرية، والخطوات ذات القدم العارية السابحة في عصبه، الواطئة وجوده الحائر المبتوث؛ تقترب رويدا رويدا، ارتدى في ركن الغرفة العاجي، وجسمه يرتعد، ونبضات قلبه كقرع الطبول، والعرق يغرق جسده، وبدا شهيقه كالمزج وكأنه يتنفس من خرم إبره، إنه لا يعرف ما هو مصيره، ولا يدري ماذا يصنع، أ يستسلم للموت؟ أم يقاوم؟.. ارتسمت أمامه صورة الحلم تماما، وساخ في بحر أوهامه:

- هل أنا في حلم أم في عالم الشهادة؟!

شعر بضيق شديد وقد استحال العالم من حوله إلى لا شيء، توقفت الخطوات خلف الباب تماما، وكاد قلبه يتوقف معها، ازرق وجهه، واتسعت حدقتا عينيه عندما تحرك مقبض الباب ببطء... شهق وفتح الباب!!

أحسخت أخته بحركة في غرفته، ذهبت لتستطلع الأمر، اقتربت بأقدامها العارية بهدوء، فتحت الباب بتأن، رآته ملقى في ركن الغرفة ووجهه محتقن، صرخت:

- عصام.. عصام.. ماذا قد دهاك!!؟